

التعليم الفرنسي في الجزائر بين أهداف التمدين المعلنة وممارسات الهدم الاستعمارية (1830-1945)

French Education in Algeria: Between Declared Objectives of Modernization and Colonial Practices of Destruction (1830-1945)

د.ة/ زهرة صوافي.

جامعة أحمد بن بلة 01، وهران، souafi.zohra@univ-oran1.dz

تاريخ القبول: 2026/03/04

تاريخ الاستلام: 2026/02/08

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر بين 1830 و1945، وتحليل مدى توافق أهدافها المعلنة مع ممارستها الفعلية على أرض الواقع، حيث مثل التعليم الفرنسي أداة مركزية في المشروع الاستعماري، إذ سعت الإدارة الفرنسية إلى تصويبه كوسيلة لنشر التقدم والرفق، فينا كانت الغاية الحقيقية تكمن في صهر الجزائريين داخل الثقافة الفرنسية وتجريدتهم من هويتهم الأصلية، وقد اعتمدت السياسة التعليمية على التفرقة الطبقية والعرقية، حيث حظي الأوروبيون بمدارس متطورة، بينما حرم الجزائريون من تعليم فعلي واكتفوا بمؤسسات فقيرة ومناهج تركز التبعية وتطمس الشخصية الوطنية، كما استهدفت محاربة التعليم التقليدي المتمثل في الكتاتيب والزوايا لتشكيل نخبة مفرنسة تكون حلقة وصل مع الإدارة الاستعمارية، حيث أسفر هذا النظام عن انقسام اجتماعي وثقافي عميق، غير أن مقاومة الجزائريين وبناء مؤسسات وطنية بديلة ساهمت في الحفاظ على الهوية الثقافية ودعمت حركات التحرر الوطني لاحقا.

كلمات مفتاحية: التعليم الجزائري، التمدين، الهدم الاستعماري، السياسة التعليمية، التعليم الفرنسي

Abstract:

This research aims to examine French educational policy in Algeria between 1830 and 1945, analyzing the extent to which its declared objectives aligned with its actual practices on the ground. French education represented a central tool of the colonial project, as the French administration sought to present it as a means of promoting progress and civilization, while its true goal was to assimilate Algerians into French

culture and strip them of their original identity. The policy relied on class and racial segregation, granting Europeans access to advanced schools, while Algerians were deprived of genuine education, confined to poorly resourced institutions with curricula that reinforced dependency and erased national identity. It also targeted traditional education in Quranic schools and zawiya to create a Frenchified elite serving as a bridge to the colonial administration. This system resulted in a deep social and cultural divide, yet Algerian resistance and the establishment of alternative national institutions helped preserve cultural identity and supported subsequent national liberation movements.

Keywords: Algerian Education; Modernization; Colonial Destruction; Educational Policy; French Education.

مقدمة:

يُعدّ موضوع التعليم الفرنسي في الجزائر من القضايا التاريخية التي تتجاوز حدود تناول التربوي أو الاجتماعي لتلامس عمق الإشكال الحضاري، فهو مرآة كاشفة لجوهر المشروع الاستعماري الفرنسي بما يحمله من أبعاد فكرية وثقافية تتجاوز مجرد الوجود العسكري إلى محاولة إعادة تشكيل الذات الجزائرية على النمط الفرنسي، فمنذ أن وطئت أقدام الجيش الفرنسي أرض الجزائر سنة 1830، تبين للإدارة الاستعمارية أنّ السيطرة الحقيقية لا تتحقق بالبندقية وحدها، وإنما بالعقل والوجدان، وأنّ إخضاع الإنسان أبغ أثرا من إخضاع الجغرافيا، وتأسيسا على ذلك، انطلقت المدرسة الفرنسية لتكون السلاح الناعم الذي يُعيد صياغة الفكر ويزرع في الأذهان بذور التبعية والانبهار بالغرب، فتبنت فرنسا خطابا تبريريا رثانا حمل في ظاهره شعارات إنسانية تدّعي نشر الحضارة، وبثّ قيم التمدن والعقلانية، ورفع مستوى التعليم، غير أنّ هذه الشعارات سرعان ما انكشفت على حقيقتها حين تبين أنّها ليست سوى واجهة تُخفي خلفها مشروعا ممنهجيا يهدف إلى تفرغ الشخصية الجزائرية من مضامينها الثقافية والدينية، فقد أرادت فرنسا، عبر مؤسساتها التعليمية، أن تُنتج جيلا من الجزائريين المفرنسين المنفصلين عن جذورهم، المتماين مع النموذج الفرنسي في اللغة والتفكير والسلوك، حتى يصبحوا أدوات في ترسيخ الوجود الاستعماري بدل أن يكونوا صوتا للرفض والمقاومة، فتحوّلت المدرسة التي يفترض أن تكون منارة للعلم والتنوير إلى أداة من أدوات القمع الرمزي تُمارس استعمارا خفيا أشدّ وطأة من الاستعمار المادي. فبينما فُتحت مدارس واسعة للمعتمّرين الأوروبيين تُقدّم فيها أرقى البرامج التعليمية وأحدث المناهج، حُرم الجزائريون من فرص التعليم الحقيقي، وقُدّمت لهم مناهج مُفرنسة فقيرة في محتواها، تُعلّمهم الانصياع أكثر مما تُنمي فيهم روح الإبداع

أو النقد، فأرادت فرنسا أن تجعل من التعليم وسيلة لترويض الفكر وتدجين الوعي، لتحقيق مقولة السيطرة على العقول قبل السيطرة على الأرض.

لهذا، فالتجربة التعليمية الاستعمارية في الجزائر كانت بحق تجسيدا حيّا للصراع بين هويةٍ تُقاوم البقاء وأخرى تسعى إلى الطمس والإلغاء، ففرنسا كانت تُعلّم من أجل الإخضاع، وبذلك أضحت التعليم ساحة مواجهة رمزية بين مشروعين حضاريين متناقضين: مشروع يسعى إلى الحفاظ على الذات واستمراريتها، وآخر يهدف إلى نفيها وإزالتها في النموذج الغربي، ورغم طول أمد الاستعمار، فإنّ المدرسة الفرنسية لم تفلح في تحقيق مبتغاها النهائي، لأنّ الوعي الوطني الجزائري ظلّ متشبّثاً بمقوماته الأصيلة، مقاوما محاولات المسخ والتزييف، ليثبت أنّ الهوية، وإن خُفّت في المدارس، لا تُطفأ جذوتها في الذاكرة والروح.

لهذا تُعدّ التجربة التعليمية الاستعمارية في الجزائر تجسيدا حيّا لصراعٍ عميق بين هويةٍ وطنيةٍ تسعى إلى الحفاظ على ذاتها واستمراريتها، وسلطةٍ استعماريةٍ عملت، عبر المدرسة، على الطمس والإلغاء وإعادة تشكيل الوعي وفق النموذج الغربي، إذ لم يكن التعليم الفرنسي فعلا معرفيًا محايدا، بل أداة للإخضاع والهيمنة الثقافية، تحوّلت بموجها المدرسة إلى ساحة مواجهة رمزية بين مشروعين حضاريين متناقضين. وانطلاقا من ذلك، تنبثق إشكالية هذا البحث في التساؤل عن طبيعة السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، وحدود نجاحها أو فشلها في تحقيق أهدافها الاستعمارية المعلنة والخفية، ومدى قدرتها على اختراق البنية الهوياتية للمجتمع الجزائري. وللإجابة عن هذه الإشكالية، يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال وصف ملامح السياسة التعليمية الاستعمارية وسياقاتها التاريخية والفكرية، وتحليل مضامينها الإيديولوجية وآثارها الثقافية، قصد إبراز آليات الهيمنة من جهة، وأشكال المقاومة والوعي الوطني من جهة أخرى، بما يفضي إلى فهمٍ أعمق لدور التعليم بوصفه أداة صراع هوياتي لا مجرد وسيلة تعليم وتكوين.

1. السياسة التعليمية الفرنسية بين الشعارات والواقع.

1.1- التعليم الجزائري قبل الاحتلال:

لقد كان المشهد التعليمي في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي نابضًا بالحياة تحرسه الزوايا وتغذّيه همم العلماء والوجهاء والأفراد الذين جعلوا من التعليم رسالة سامية وأداة لبناء الإنسان، فقد انتشرت الكتابات في القرى والمدن، وعمّ التعليم الابتدائي أرجاء البلاد حتى صار جزءًا من النسيج الاجتماعي والثقافي

للمجتمع الجزائري، وهو ما أقرّ به الجنرال «فلازي» نفسه حين اعترف بأن التعليم كان مزدهرًا في الجزائر قبل عام 1830¹، وقد استند الباحث عبد القادر بوحسون إلى هذا الاعتراف في دراسته التي تناولت الجانب الخفي من السياسة التعليمية الاستعمارية، معتبرًا إيّاه دليلًا قاطعًا على تناقض الخطاب الفرنسي الذي يرّ غزوه للبلاد بذريعة تمدين شعب جاهل.

إنّ هذا الإقرار الصادر من قلب المؤسسة الاستعمارية لا يكشف فقط زيف الادّعاءات الفرنسية، وإنما يسلّط الضوء على وعي حضاري راسخ لدى الجزائريين الذين أدركوا منذ قرون أنّ التعليم هو أساس العمران وركيزة النهوض، فقد كانت الزوايا آنذاك منارات إشعاع علمي وروحي تجمع بين تعليم القرآن واللغة والفقه والأدب، وتغرس في النفوس قيم المعرفة والإيمان والكرامة، ليتهاوى الادّعاء الفرنسي القائل بتخلّف الجزائر الثقافي أمام شهادات تاريخية تؤكّد أنّ البلاد كانت تمتلك منظومة تعليمية متجذّرة في روحها، نابضة بأصالة الفكر وثراء التراث، قبل أن يحاول الاستعمار طمسها باسم "التحضير" و"التمدين".²

لقد اضطلعت المؤسسات التعليمية التقليدية في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي، بدور محوري في إشاعة العلم وترسيخ القيم الحضارية، فكانت المساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس القرآنية تشكّل شبكة متكاملة لبناء الوعي وتنمية المجتمع علميًا وروحيًا، ففي هذه الفضاءات المباركة، كان الطفل يتلقون مختلف العلوم والمعارف، من علوم الدين واللغة إلى الفقه والمنطق والحساب في إطار تربوي يزاوج بين التعليم والتركية الأخلاقية، وقد اعتمدت هذه المؤسسات في تمويلها على نظام الأحباس والأوقاف، إذ كانت العائدات المخصصة لذلك تغطّي نفقات التعليم ورواتب المعلمين، مما منح العملية التعليمية استقلالًا ماديًا وحافزًا للاستمرارية والازدهار. وتشير الدراسات والتقارير الفرنسية نفسها إلى أنّ مستوى التعليم في الجزائر آنذاك كان متقدّمًا بصورة لافتة، إذ تراوحت نسبة المتعلّمين القادرين على القراءة والكتابة بين 40% و55%، وهي نسبة تفوّقت -باعتراض الفرنسيين- على نظيرتها في فرنسا خلال الفترة نفسها، كما كانت تلك المؤسسات تُخرّج سنويًا ما بين ألفي وثلاثة آلاف عالم في مجالات الحقوق والشريعة، وهو ما يعكس عمق الحياة الفكرية وثراء البيئة العلمية التي كانت تميز المجتمع الجزائري قبل الاحتلال، ليُشكّل هذا

¹ - عبد القادر بوحسون، الوجه الخفي للتعليم الاستعماري الفرنسي في الجزائر، (المنهج، والآليات والنتائج)، مجلة الاستعمار،

العدد 41، شتاء 2025، ص: 144.

المرجع نفسه، ص، 144. ²

النظام التعليمي الأصيل أحد أعمدة الهوية الوطنية، وركيزة أساسية في صون الذاكرة الثقافية والدينية، قبل أن تأتي السياسة الاستعمارية لتستهدفه بوصفه أحد منابع المقاومة الفكرية والروحية في البلاد¹.

ما إن أحكمت فرنسا سيطرتها على الجزائر، حتى بادرت إلى تنفيذ سياسة منهجية تستهدف تفكيك البنية التعليمية الوطنية وإعادة تشكيلها بما يخدم مشروعها الاستعماري، فقد أدركت باكراً أنّ المدرسة الجزائرية كانت القلب النابض له هوية الأمة ومصدر قوتها الفكرية، لذلك عمدت إلى غلق الكتاتيب والزوايا والمدارس القرآنية، وسلبها دورها في نشر العلم وصون القيم الدينية والثقافية..، ولعلّ ما جرى للمدرسة الكتّانية في قسنطينة مثلاً صارحاً على هذه السياسة؛ إذ كانت هذه المؤسسة التي أنشأها صالح باي بن مصطفى عام 1787، رمزاً للتعليم الأصيل ومركز إشعاع علمي وروحي في المنطقة، غير أنّ الإدارة الفرنسية لم تتردد سنة 1850 في مصادرتها وضمتها إلى أملاك الدولة بحجة أنها من ممتلكات الباي الخاصة، لتجردّها من صفتها الوقفية وتحوّلها إلى مؤسسة تابعة لسلطتها المباشرة، وفي سنة 1876، وضعت فرنسا نظاماً إدارياً جديداً للمدرسة يضم 77 مادة، وأسندت الإشراف على تنفيذه إلى القائد العام للجيش الفرنسي في دلالة واضحة على الطابع العسكري الذي وُجهت به العملية التعليمية، ثم استكملت خطتها سنة 1884 عندما ألغت منصب المدير العربي واستبدلته بأستاذ فرنسي؛ لتقطع آخر خيوط الارتباط بين المدرسة ومحيطها الوطني، لتتحول المدرسة الكتّانية من منارة علمية تنشر المعرفة والوعي إلى أداة في يد الاستعمار تهدف إلى فرض الثقافة الفرنسية ومحاوله طمس الهوية التعليمية الجزائرية في عمقها العربي والإسلامي².

لم يكن الاحتلال الفرنسي للجزائر مجرد غزو عسكري أو استيلاء على أرض وثروة، وإنما كان مشروعاً شاملاً يستهدف كيان الأمة الجزائرية في أعماق معانيه، إذ تجاوزت فرنسا مرحلة السيطرة المادية إلى محاولة طمس الروح الوطنية ومحو المعالم الحضارية للشعب الجزائري، فمنذ الأيام الأولى للاحتلال، شرع الحاكم العسكري الفرنسي كلوزيل، بموجب قراره الصادر في 7 ديسمبر 1830، في مصادرة الأملاك

¹ - رشيد مياد، دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 14، عدد 1 جانفي

2022، السنة الرابعة عشرة، ص: 853

² - بن علي محمد، مكّي خالدية، واقع التربية والتعليم في الجزائر خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي وغداة الاستقلال، المائدة المستديرة: فاعلية القانون التوجيهي رقم 2304/08، 23/01/2008، للتربية الوطنية يوم 28 سبتمبر 2011، ص: 31.

الدينية والأوقاف التي كانت تمثّل الركيزة الاقتصادية للمساجد والزوايا والمدارس القرآنية التي كانت بدورها القلب النابض للحياة الدينية والتعليمية في البلاد، وقد رافق ذلك حملة ممنهجة لمطاردة العلماء والمصلحين وتشريدتهم، لأنهم كانوا حراس الهوية الإسلامية وحملة لواء المقاومة الفكرية في وجه المستعمر، فاستُهدفوا بالنفي والاعتقال والتضييق، في محاولة لقطع الصلة بين الشعب ومؤسساته الروحية، ويشير الباحث محمد عمارة في كتابه "تحديات لها تاريخ" إلى أنّ الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن كغيره من أشكال الاستعمار التي تكتفي بإخضاع الشعوب سياسياً أو اقتصادياً، حيث كان استعماراً ذا طابع فكري وثقافي يهدف إلى محو الشخصية القومية العربية الإسلامية للشعب الجزائري وتجيده من مقوّماته الحضارية حتى يفقد القدرة على المقاومة، ففرنسا كما يوضح الباحث محمد عمارة، أنها لم تكتفِ باغتصاب الأرض ونهب الثروات، حيث أرادت أن تسحق الوعي الجمعي للأُمّة وتعيد صياغته وفق النموذج الفرنسي، فحاولت طمس العربية لغةً وثقافةً وتشويه الإسلام رسالةً ومنهجاً، لتجعل من الجزائر مجرد امتداد ثقافي وحضاري لفرنسا، وهكذا، لم يكن الاحتلال العسكري سوى الوجه الظاهر لمخطط أعمق هدفه اقتلاع الجذور الروحية والفكرية للأمة الجزائرية وتحويلها إلى كيان تابع منزوع الهوية والذاكرة¹.

2.1 البنية التنظيمية التعليمية الفرنسية.

أنشئت أكاديمية الجزائر سنة 1850 بقرار إداري صادر عن السلطة الاستعمارية الفرنسية لتكون جهازاً إشرافياً وتنظيماً جديداً يتولى مهمة الإشراف الكامل على شؤون التعليم في البلاد، بعد أن نُقلت صلاحياته من وزارة الحربية إلى وزارة التعليم الفرنسية،² وقد شكّل هذا التحول الإداري لحظة فارقة في مسار المشروع الاستعماري، إذ عبّر عن انتقال الاستراتيجية الفرنسية من مرحلة الاحتلال العسكري المباشر إلى مرحلة جديدة أكثر عمقاً ودهاءً، هي مرحلة الاحتلال الثقافي والفكري المنظم، بعد أن استُنفدت أساليب العنف والقوة، لجأت فرنسا إلى اعتماد التعليم كسلاح ناعم يهدف إلى اختراق الوعي الجمعي للجزائريين وإعادة تشكيله على النمط الفرنسي؛ في محاولة لتبديل أدوات السيطرة دون المساس بجوهرها، ولم يكن هذا

¹ - محمد عمارة، تحديات لها تاريخ المؤسسة العليا للدراسات والنشر، مصر، ط1، 1960، ص: 21

² - Mansour Khaled Khodja, L'école Algérienne et les politiques Scolaires, in <https://e-biblio.univ-mosta.dz/server/api/core/bitstreams/019ce30a-b346-48e3-9515-fc8ecca2951c/content> p 2.

-voir aussi <http://www.archivesnationales.culture.gouv.fr/chan/chan/series/pdf/F17-12325-12337.pdf> p 5

الانتقال من سلطة العسكر إلى سلطة التعليم مجرّد إجراء إداري بسيط، حيث مثّل تحوّلًا جذريًا في فلسفة الهيمنة ذاتها، إذ أدرك الاستعمار أنّ السيطرة الدائمة لا تُفرض بالسيف وحده، وإنما تُغرس في العقول عبر المدرسة والمناهج والمعلم، ومن ثمّ، تحوّلّت الأكاديمية إلى مؤسسة براغماتية تُعنى بإعادة إنتاج الفكر الاستعماري في ثوبٍ تربوي، هدفها ليس النهوض بالمجتمع الجزائري، بل تحويله إلى كيان تابع ثقافيًا وحضاريًا لفرنسا.

وقد أسندت إدارة هذه الأكاديمية إلى أحد مديري المدارس العادية¹ (École Normale) في الجزائر بعد سنة 1865، وهي مؤسسة فرعية عملت على تكوين المعلّمين الفرنسيين وتأهيلهم لتلقين الجزائريين دروسًا تتجاوز المعرفة إلى زرع قيم الطاعة والولاء والخضوع للنظام الاستعماري، فكانت برامجها تُدمج بين التعليم الشكلي والانضباط العسكري، لتنتج فئة من المعلّمين تتقن فنّ السيطرة الناعمة على العقول وتستطيع تمرير الفكر الفرنسي داخل قوالب تعليمية تبدو بريئة من حيث الشكل، لكنها مشحونة بالرسائل الإيديولوجية، فأصبحت الأكاديمية أداة فعّالة لتوحيد المناهج والمواد الدراسية في مختلف المدارس المنتشرة عبر التراب الجزائري، بحيث تتناغم جميعها في بثّ رسالة واحدة: تمجيد فرنسا وحضارتها، وإقناع الجزائريين بتفوّقها الثقافي والمدني، فلم يكن الهدف من التعليم تطوير قدرات المتعلّمين أو الارتقاء بوعيهم، وإنّما إعداد جيل يخدم مصالح فرنسا الاقتصادية والسياسية ويؤمن بجدوى استمرارية وجودها، ورغم الطابع المدني الظاهري للأكاديمية، إلّا أنّ الطابع العسكري والأمني ظلّ حاضرًا في بنيتها التنظيمية، من خلال الصرامة الإدارية والمراقبة الدقيقة لسلوك التلاميذ والانضباط القسري في الفصول الدراسية، فبدل أن تكون المدرسة فضاءً للتفكير الحر والإبداع، تحوّلّت إلى ميدان لتلقين الولاء، وإخماد الحس الوطني وصّهر الهوية في بوتقة الفكر الفرنسي، وبذلك تجسّد في مشروع الأكاديمية جوهر الاستعمار الثقافي: تحويل التعليم من وسيلة للتحرر إلى أداة للاستعباد الفكري والنفسي².

وتأسيسًا على هذا المنظور، خضعت عملية نشر التعليم في الجزائر لاستراتيجية محكمة مبنية على ثوابت إيديولوجية وأهداف سياسية دقيقة، فقد عمدت الإدارة الاستعمارية إلى تصميم نظام تعليمي مزدوج يخدم مصالحها دون الانصهار في الثقافة المحلية أو الاعتراف بحقوق عامة السكان في المعرفة. فتم

¹ <http://www.archivesnationales.culture.gouv.fr/chan/chan/series/pdf/F17-12325-12337.pdf>.p 5.

² -P Bernard les écoles indigènes devant L'opinion Public, imprimerie Adolphe Jourdan, Alger 1897,pp 14-

إنشاء نظامين متوازيين: النظام الأول، حديث الطراز، خصّص لتعليم أطفال المستوطنين الفرنسيين وبعض فئات محددة من السكان المحليين، بهدف تزويده بأساس معرفي متقدّم يضمن ولاءهم للسلطة الجديدة ويهيئهم للانخراط في مؤسساتها؛ أمّا النظام الثاني، التقليدي، فتمسك بالزوايا الصوفية والمدارس القرآنية، ولكنه بقي مقتصرًا على عامة الشعب بمستوى محدود من التعليم، يكرس الفجوة بين النخبة الفرنسية المحلية وبقية السكان، ومن هذا التمييز الواضح، يمكن استخلاص أنّ الهدف الحقيقي من التعليم الاستعماري لم يكن اندماج السكان المحليين في الثقافة الفرنسية أو رفدهم بفرص متكافئة للنهوض الاجتماعي والفكري، بحيث كان تعليمًا وظيفيًا محدودًا يركّز على التدريب المهني الأساسي وإنتاج قوة عمل متوسطة المستوى وعمالة ماهرة يمكن استغلالها من قبل الإدارة الاستعمارية لتحقيق أهدافها الاقتصادية والسياسية، وبذلك لم تتحقق المدرسة الاستعمارية بصفقتها مؤسسة تعليمية بالمعنى الكوني للمعرفة، حيث تحوّلت إلى أداة دقيقة لإعادة تشكيل المجتمع الجزائري وفق مصالح الاحتلال، مع إبقاء عامة السكان في دائرة تعليمية محدودة تضمن استمرار الهيمنة وإحكام السيطرة على الموارد البشرية والثقافية في البلاد

القوانين والتشريعات الخاصة بالتعليم الفرنسيّ:

شهدت الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية إصدار سلسلة من المراسيم التي نظّمت شؤون التعليم بشكل يعكس الفهم الفرنسي للاحتلال وطرائق السيطرة الثقافية على المجتمع المحلي، فقد نصّ مرسوم 14 يوليو 1850¹ على تأسيس مدارس فرنسية خاصة بالأوروبيين، في حين أتاح مرسوم 20 سبتمبر 1850² إنشاء ثلاثة مدارس إسلامية أو عربية، أمّا المراسيم الصادرة في 8 و9 نوفمبر 1883 و13 ديسمبر 1887³ فقد شرعت بتنظيم التعليم الابتدائي للأوروبيين والأهالي بطريقة منفصلة، وهو ما يبرز التمييز الواضح بين مجموعات السكان في الوصول إلى التعليم.

ورغم إعلان إلغاء الرسوم وجعل التعليم مجانيًا عام 1883، لم يتم تطبيق هذه الإلزامية على الجزائريين، حيث اقتصرت فعليًا على الأوروبيين، مما يعكس محدودية النوايا الإصلاحية الفرنسية وارتباط التعليم بخدمة أهدافها الاستعمارية، وفي عهد جول فيري، خصّصت ميزانية لبناء المدارس بالجزائر، وزاد

¹ <http://www.archivesnationales.culture.gouv.fr/chan/chan/series/pdf/F17-12325-12337.pdf> 5

² - Ibid.

³ - Ibid.

عدد المدارس من 110 مدرسة عام 1882 إلى نحو 1200 مدرسة بحلول عام 1892، إلا أنّ هذه الزيادة لم تعكس تطوّر التعليم العام للجزائريين بقدر ما خدمت التوسّع الرمزي لمشروع التعليم الفرنسي¹.

وتكشف دراسة إحصائية أجراها الباحث **هوبير ديسفاج** عن فجوة كبيرة بين الخطاب الرسمي الذي روّجت له السلطات الفرنسية حول التنوير والحضارة، والواقع العملي لسياسة التعليم في الجزائر، حيث تظهر الأرقام والأدلة الكمية أنّ الهدف الأساسي من التعليم لم يكن النهوض بالمجتمع الجزائري أو دمج المسلمين في عملية التحديث، بل السيطرة على المعرفة وتوجيهها وفق مصالح فرنسا الاستعمارية، مع تحديد العقبات والصعوبات التي اعترضت تنفيذ هذه السياسة، سواء من ناحية مقاومة المجتمع المحلي أو طبيعة التنظيم الإداري للمدارس. وهكذا يقدّم هذا التحليل الكمي لمراحل التمدد لدى المسلمين الجزائريين صورة دقيقة لتباين الخطاب الرسمي عن الممارسة الفعلية، ويفضح التناقض بين شعارات الحضارة المعلنة والأهداف الاستعمارية الحقيقية الموجهة للتعليم².

2- مراحل السياسة التعليمية الفرنسية:

تميّزت المرحلة الأولى من التعليم الفرنسي في الجزائر، والتي يطلق عليها عادة مرحلة البدايات **المتعثرة** (1882-1908)، بالركود النسبي والإخفاق في تحقيق انتشار واسع للتعليم بين السكان المسلمين، إذ لم يتجاوز عدد الطلّاب المسجلين في المدارس الفرنسية خلال السنة الدراسية 1881-1882 ثلاثة آلاف تلميذ فقط، وهو رقم يعكس محدودية الجهود المبذولة في هذه الفترة، فضلاً عن فشل محاولات الإمبراطورية الثانية في ترسيخ التعليم الفرنسي وتوسّع النموذج المختلط الفرنسي-العربي، الذي اندثر تماماً بحلول عام 1883³.

¹ Charles Robert Agéron, l'histoire de L'Algérie Contemporaine Tome 3, P U F, Paris, 1979, p 155.

² -Hubert Desvages, la scolarisation des Musulmans en Algérie (1882-1962) dans l'enseignement Primaire public Français, Etud Statistique, in cahier de la Méditerranée, n°4, 1, 1972, pp 55-57

³ Charles Robert Agéron, Op cit, p 155.

ومع مرور نحو ستة وعشرين عامًا، شهد عام 1908 تسجيل أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف طالب، وهو نمو ملموس لكنه بطيء مقارنة بالأهداف المعلنة للسلطات الفرنسية، والتي شملت إصدار مرسوم 1883 وتنفيذ خطة جون ميير الرامية إلى توسيع شبكة التعليم ونشرها على نطاق واسع في الجزائر، ومع ذلك، اصطدمت هذه المبادرات بعقبات مزدوجة؛ فمن جهة، واجهت مقاومة شديدة من المستوطنين الأوروبيين الذين خشوا من ارتفاع المستوى التعليمي والاجتماعي للجزائريين وما قد يترتب عليه من تهديد لمصالحهم وامتيازاتهم الاقتصادية والاجتماعية، ومن جهة أخرى، ظل جزء كبير من المجتمع المسلم الجزائري متحفظاً أو متشككاً تجاه المدارس الفرنسية لأسباب دينية وثقافية، مما أعاق دمج التعليم الفرنسي في النسيج المجتمعي المحلي¹.

لنعكس هذه المرحلة مزيجاً من الطموحات الرسمية المحدودة والقيود العملية التي فرضتها الظروف الاستعمارية، مترافقة مع مقاومة المجتمع الجزائري للحفاظ على هويته وثقافته، وتُبرز هذه الديناميكية الصعبة مدى تعقيد سياسة التعليم الاستعماري الذي لم يتمكن من تحقيق أهدافه بالكامل، إذ اصطدمت محاولاته بالواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع المحلي، كما تسلّط الضوء على الطبيعة المتشابكة للصراع بين الهيمنة الثقافية الفرنسية ووعي الجزائريين المتنامي الذي أدّى إلى مقاومة متواصلة سواء عبر التمسك بالمدارس التقليدية أو الحركات الإصلاحية الإسلامية، وتكشف هذه التجربة عن محدودية تأثير الخطابات الرسمية مقارنةً بالواقع الميداني، حيث ظل التعليم وسيلة للسيطرة أكثر منها أداة للتنمية الحقيقية، مؤكّداً أنّ الصراع بين الاستعمار والمجتمع الجزائري لم يكن مقتصرًا على السياسة، حيث امتدّ ليشمل الهوية الثقافية والدينية، كما أسفر النقص المتعمد في التمويل من قبل السلطات الاستعمارية، إلى جانب الممانعة المستمرة من أطراف متعددة، عن إحقاق واضح في تحقيق الأهداف التعليمية المعلنة خلال هذه المرحلة، مما يفضح التناقض الجلي بين الخطاب الرسمي الذي يزعم الاهتمام بتعليم السكان الجزائريين وبين الواقع الفعلي على الأرض، حيث ظلت الغالبية العظمى من الأطفال المسلمين خارج نطاق النظام التعليمي الفرنسي محرومة من فرص التعلّم ومقيدة بقيود التهميش المؤسسي الذي فرضه الاستعمار.

المرحلة الثانية (1908-1944) التقدّم المتقطع:

¹ Hubert Desvages, Op.Cit, pp 55-56-57

شهدت الفترة الممتدة لنحو ستة وثلاثين عامًا ارتفاعًا ملحوظًا في أعداد الطلّاب المسلمين المسجلين في المدارس الفرنسية، إذ تضاعف العدد تقريبًا ثلاث مرات، غير أنّ هذا النمو لم يكن متسقًا أو منتظمًا، بل اتسم بتقلبات واضحة تخلّ لها فترات من الركود والتراجع، لاسيما أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، حيث استمر جزء كبير من المجتمع المسلم في رفضه للنموذج التعليمي الفرنسي والقيم الثقافية التي يحاول فرضها، فشكلّت تجربة الحرب العالمية الأولى نقطة تحوّل نوعية، إذ أدّى انخراط عشرات آلاف الجنود الجزائريين في الحرب وهجرة أعداد متزايدة للعمل إلى فرنسا، إلى صقل وعي وطني جديد لدى الجزائريين وإدراك متنامٍ لأهمية التعليم كوسيلة للتقدّم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي¹.

وبتأثير هذه التحولات، بدأ قبول التعليم الفرنسي يزداد تدريجيًا، وإن ببطء -داخل الأوساط المسلمة- خصوصًا بين الطبقة الوسطى الناشئة والعائلات التي تأثّرت مباشرة بالهجرة والتعرض للثقافة الأوروبية، مما انعكس في ارتفاع طفيف لكن مستمر في معدلات التسجيل والالتحاق بالمدارس الفرنسية، ويظهر من هذا التطور الفجوة الكبيرة بين الخطاب الاستعماري الرسمي الذي يزعم نشر التعليم بين المسلمين وبين الواقع الفعلي على الأرض، إذ ظلت أعداد الملتحقين بالمدارس الفرنسية بعيدة كل البعد عن تلبية الاحتياجات التعليمية الحقيقية للمجتمع، مؤكدة أنّ التعليم ظل أداة مضبوطة ضمن استراتيجية الاستعمار للسيطرة الثقافية أكثر من كونه مشروعًا تنمويًا حقيقيًا.

المرحلة الثالثة: الإصلاح المتأخر (1944-1962)

شهدت الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية تحوّلًا ظاهرًا في السياسة التعليمية الفرنسية تجاه الجزائريين، اتسم بطابع الطموح والإصلاح الهيكلي، حيث برزت خطط موسعة لتسريع تدرّس السكان المسلمين تضمّنت زيادة منهجية في عدد المدارس والفصول الدراسية والمعلمين، إلى جانب تسجيل أعداد متزايدة من الطلّاب في مختلف الفئات العمرية. كما أعلن رسميًا عن خطوات لإلغاء التمييز القانوني والإداري في الوصول إلى التعليم الابتدائي والثانوي وفتح آفاق التعليم الأساسي لجميع الأطفال بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية، مما شكّل في الظاهر انتصارًا للخطاب الجمهوري حول المساواة التعليمية².

¹ Hubert Desvages, Op Cit, pp58-59.

- ينظر الملحق الذي يشمل إحصائيات التعليم²

غير أن هذه المظاهر الإصلاحية لم تكن تعكس الواقع الميداني بالقدر نفسه، إذ تكشف البيانات الإحصائية عن صورة أكثر تعقيداً، فقد ارتفع عدد الطلاب الجزائريين المسجلين بسرعة لتجاوز ثلاثمائة ألف عام 1954، إلا أن هذا النمو جاء متأخراً جداً مقارنة بالحاجة الفعلية للمجتمع، وبقيت الفجوات العميقة قائمة خصوصاً في التعليم الثانوي والعالي، حيث ظلّ تمثيل الطلاب المسلمين محدوداً للغاية مقارنة بأقرانهم الأوروبيين، وتعكس هذه الجهود المكثفة في ظل الثورة التحريرية الجزائرية محاولة أخيرة من الإدارة الفرنسية لتعزيز شرعيتها والبقاء في الجزائر عبر استغلال التعليم بصفته أداة سياسية للسيطرة الثقافية والاجتماعية أكثر من كونه مشروعاً حقيقياً للتنمية والتقدم المجتمعي¹.

وعُموماً، فسياسة التعليم الفرنسية في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، رغم شعاراتها الإصلاحية وحملتها الدعائية المفعمة بالحماس، لم تكن أكثر من مناورة استعراضية تهدف إلى التهدئة وكسب الوقت وتعزيز السيطرة الاستعمارية، فقد بقيت الفجوة واضحة بين الخطاب الرسمي الرنّان والواقع الميداني الذي عاشه الجزائريون، إذ لم تنجح هذه السياسات في معالجة الاحتياجات التعليمية الحقيقية للسكان المحليين، وفي حين زُعمت المساواة بين الأوروبيين والجزائريين في حقّ التعليم، بقيت التمييزات القانونية والاجتماعية حاضرة، وخصوصاً في التعليم الثانوي والعالي، فلم تؤدّ الزيادة في عدد المدارس والطلاب إلى تحقيق تغطية شاملة، حيث اقتصر أثرها على فئات محدودة، غالباً من أبناء المدن والطبقة الوسطى، كما عكست هذه السياسات محاولة فرنسية لتعزيز شرعيتها السياسية وسط تصاعد الحركة الوطنية والتحول الاجتماعي بعد الحرب، ليلظل بذلك التعليم الفرنسي أداة للهيمنة الثقافية والسياسية أكثر منها وسيلة للتنمية الفعلية للشعب الجزائري.

3-أهداف التعليم الفرنسي: ارتكزت السياسة التعليمية التي تبنتها الإدارة الفرنسية في الجزائر على ثلاثة محاور رئيسة، اتسمت جميعها بطابع استعماري واضح، إذ لم تكن مجرد برامج تعليمية بقدر ما كانت أدوات مدروسة لتفكيك الشخصية الجزائرية المسلمة وتشويه هويتها الثقافية والدينية، فقد سعت هذه السياسة إلى فرض اللغة الفرنسية بصفقتها لغة أساسية، كوسيلة للهيمنة الفكرية والسيطرة على عقول الأجيال الصاعدة، إلى جانب التنصير الذي مثّل أحد أوجه السيطرة الروحية ومحاولة تغيير المعتقدات الدينية وتعميق الفجوة بين المجتمع الجزائري وهويته الإسلامية الأصيلة، كما كان الإدماج الاجتماعي

¹ - Hubert Desvage ,Op, cit ,pp 60-63.

والثقافي أحد الأهداف الكبرى، إذ حاولت فرنسا استيعاب الجزائريين ضمن منظومتها الثقافية، وطمس معالم استقلالهم الذهني والسياسي، بما يجعلهم أكثر خضوعاً وتأثيراً للهيمنة الاستعمارية، ويمكن تلخيص هذه الأهداف في ثلاثية مركزية: الفرنسية كأداة لغوية وثقافية، التنصير كوسيلة روحية، والإدماج كاستراتيجية لإعادة تشكيل الهوية الوطنية بما يخدم مصالح الاحتلال.

- الفرنسية: سعى المستعمر الفرنسي إلى تقويض اللغة العربية الفصحى بشكل ممنهج، وتشجيع استخدام اللهجة المحلية، مع فرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية للتخاطب والتعليم، بهدف تكوين جيل جديد يكون وسيطاً بين الإدارة الفرنسية والجزائريين، وضمن هذا الإطار، حاولت السياسة الاستعمارية تجريد الجزائريين من هويتهم العميقة، المتمثلة في لغتهم وثقافتهم ونظامهم الاجتماعي والثقافي، بما يحقق رؤى منطري الفكر الاستعماري الذين سعوا إلى تصدير ما أطلقوا عليه "العبقريّة الفرنسية"، وإعادة تشكيل وعي المجتمع الجزائري بما يخدم مصالح فرنسا ويمحو جذور الانتماء الوطني والثقافي، إذ عبر أحدهم فرديناند قامبو قائلاً: "إذ لمْ نتمكن من القضاء على القرآن، وإذا لمْ ننجح في إذابة اللغة العربية وإماتها تدريجياً...؛ فإنّ عملنا الاستعماري كله سيظل معرّضاً للخطر الدائم والمستمر..."¹.

وفي أعقاب الاحتلال الفرنسي للجزائر، وضعت الإدارة الاستعمارية خطة ممنهجة للهيمنة الثقافية واللغوية تجسدت إحدى تجلياتها في تعليمات رسمية صادرة إلى الحاكم العام، جاء فيها بوضوح أنّ إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية، والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم محلّ اللغة العربية، وفي السياق نفسه، شدّد فرديناند قامبو على عزمه عدم السماح بعد الآن بتعليم القرآن في المدارس الدينية، وإلغاء التعليم باللغة العربية للسكان، ليصبح كل التعليم في مدارس السكان الأصليين باللغة الفرنسية².

لقد كشف هذا التوجه عن إرادة واضحة لمحو اللغة العربية، بوصفها حجر الزاوية في الشخصية الجزائرية المسلمة، ولتحقيق ذلك لجأت السلطات الاستعمارية إلى استراتيجية دقيقة شملت تصنيف اللغة العربية إلى ثلاثة أصناف: العربية العامية التي يستعملها عامة الناس واعتُبرت غير صالحة للتعليم؛ العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم التي رأت فيها فرنسا تهديداً حضارياً؛ والعربية الحديثة، المشتقة من إنتاج المتعلمين، والتي

¹ - Ferdinand Cambon, aux algérien Système de Colonisation, chez Challamel Librairie paris 1871,p49.

² - عبد القادر بوحسون، الوجه الخفي للتعليم الاستعماري الفرنسي، نفس المقال ص: 146.

اعتُبرت أداة للقومية العربية ويجب حظرها وإبعادها عن البرامج التعليمية¹.

وقد بلغت الحرب على اللغة العربية ذروتها مع بداية الثلاثينات، وتميّزت بقرار شوطان عام 1938 الذي عدّ العربية لغة أجنبية في الجزائر، ومنع تعليمها في كافة المعاهد الحكومية الفرنسية وحتى في مؤسسات التعليم العربي الحر، وقد هدفت هذه السياسات بشكل مباشر إلى تقييد دور اللغة العربية في بناء وعي الطفل الوطني، فاعتُبرت العربية الفصحى لغة ميتة، والعربية الحديثة لغة دخيلة، بما يجعلها غير صالحة للتعليم، وهكذا، كان القضاء على العربية جزءاً محورياً من المخطط الاستعماري الفرنسي لتفكيك الهوية الوطنية والثقافية للجزائريين وخلق جيل يعتمد على الثقافة الفرنسية ويتعدى عن جذوره العربية والإسلامية².

— **التنصير:** منذ البداية، أولت الإدارة الفرنسية منذ احتلال الجزائر اهتماماً بالغاً لمحو الدين الإسلامي وإحلال المسيحية مكانه، فقد عبّر أحد المبشرين عن أهداف هذا المشروع بقوله أنّ الهدف من إنشاء المدارس الفرنسية في شمال إفريقيا لم يكن إعداد عوالم مثل عقول فولتير أو مونتسكيو أو جون جاك روسو، بل تغيير اللغة بلغة، والدين بدين، والعادات بعبادات، وفي تصريح آخر أدلى به لافيغري عن مدرسته التبشيرية، أكد أنه يسعى إلى جعل الجزائر مهداً لدولة مسيحية مستقلة يضيء نور مدنها بالإنجيل³، حيث أسهمت هذه المدارس التبشيرية، التي بلغ عددها 21 مدرسة يديرها الآباء البيض ويستفيد منها نحو 1039 تلميذاً، في نشر الرموز الدينية المسيحية وغرس قيم العقيدة في نفوس الطلّاب، حيث كان المعلمون منحازين تماماً لمعتقدهم، وقد شكّل المبشرون الأرضية الصلبة للهيمنة الاستعمارية، وهو ما أكدّه لافيغري عام 1839 بقوله: "علينا أن نخلّص هذا الشعب من قرّانه، وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ المسيحية، وهكذا، لم يكن التعليم التبشيري مجرد وسيلة تربوية، وإنما أداة استعمارية ثقافية دينية تهدف إلى تحطيم الهوية الإسلامية للجزائريين، وتهيئة المجتمع لقبول الهيمنة الفرنسية على المستوى الفكري والديني والاجتماعي⁴.

— **تعزير التفوق الأوروبي على حساب الجزائري:**

¹ -Ferdinand Cambon,op ,cit pp 49-50.

— رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ط2، ش، و، ج، 1981، ص 119.

³ _ المرجع نفسه، ص: 40.

⁴ - رابح تركي، المرجع نفسه، ص، 40.

في إطار السياسة التعليمية الاستعمارية، خصّصت المدارس الفرنسية المناهج الحديثة بشكل شبه حصري لأبناء المستوطنين الأوروبيين، مع منح فرصة محدودة جدا لفئة ضئيلة من الجزائريين الذين كانوا يعتبرون مؤهّلين للانخراط في الوظائف الإدارية أو النخب المختارة، وهو ما يعكس بوضوح الغاية الحقيقية من التعليم في هذا السياق: ليس نشر المعرفة أو تمكين المجتمع المحلي، بل ترسيخ التفوّق العرقي والاجتماعي والجنسي للأوروبيين، وتعزيز مكانتهم في هرم السلطة الاقتصادية والثقافية، وبذلك، لم تكن فرص التعليم والعمل متاحة على قدم المساواة بين السكان، بل عملت السياسة التعليمية الاستعمارية على تعميق الفجوات الاقتصادية والاجتماعية القائمة بين الجزائريين والمستوطنين، مكرّسة نظاما من التمييز المنهجي يضمن استمرار التبعية والهيمنة الثقافية والسياسية للمستعمر، في حين ظل الجزء الأكبر من المجتمع الجزائري محروما من أدوات التنمية والارتقاء الاجتماعي، مقيّدا بين حدود تعليمية مصممة لإدامة الهيمنة بدلا من تمكين الفرد والمجتمع¹.

-تعليمُ الفتيات: رفض الكثير من الآباء الجزائريين تعليم بناتهم في المدارس الفرنسية يعود إلى مخاوفهم من تأثير المناهج الغربية على أخلاق الفتيات، إذ كانوا مدركين أنّ هذه البرامج التعليمية تنقل قيما وأفكارا تتعارض مع النظام الاجتماعي والثقافي التقليدي، وتدفع نحو تصوّر مختلف للحرية والمكانة الاجتماعية، وبسبب هذا الرفض، لجأ المستعمر إلى استراتيجيات متعمقة للتغلغل داخل المنازل الجزائرية، حيث قامت نساء المباشّرين بزيارات للمنازل تحت ذريعة تقديم العلاج وتوزيع الأدوية، ثمّ اقتياد الفتيات الصغيرات إلى مراكز تبشيرية مسيحية مستعملين في ذلك أساليب الإغراء، مثل: الهدايا خلال الأعياد المسيحية، ووسائل جذب أخرى لتقريبهن من الدين المسيحي وغرس قيمه في نفوسهن. وقد انعكست هذه السياسات بشكل واضح على تكوين النخبة المفرنسة الجزائرية، إذ أفرزت فئة من المجتمع تربّت على التعليم الفرنسي والمبادئ المسيحية، فاصطدمت في هويتها مع الأغلبية المتمسكة بالعادات والتقاليد المحلية، مسلطة الضوء على الدور المركب للتعليم في تشكيل الفوارق الثقافية والاجتماعية تحت الاستعمار².

- سمير أبيش، أهداف وخصائص السياسة التعليمية الفرنسية، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، الوادي عدد 23،

3- تكوين نخبة مفرنسة موابية لسياسة فرنسا:

نشأت نخبة جزائرية خلال أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة لتداخل مجموعة من العوامل التاريخية والاجتماعية، من أبرزها: انفتاح الإدارة الفرنسية المحدود على التعليم أمام بعض الجزائريين، رغم قلة هذه الفرص مقارنة بالمستوطنين، والتحق بعض أفراد هذه الفئة بالمدارس الفرنسية والجامعات، مما مكّنهم من تطوير قدراتهم الفكرية ضمن الإطار الثقافي الفرنسي، ليصبح التعليم أداة لإنتاج نخبة منفصلة عن المجتمع الجزائري التقليدي التي وجدت نفسها بين ثقافة أصابها الجمود والتدهور وأيديولوجيا غربية متقدّمة. وكان الهدف الضمني للاستعمار من هذه العملية هو خلق طبقة وسطى مفرنسة قادرة على تسهيل عملية السيطرة، بحيث يصبح الاستلاب الثقافي للنخبة موازيا للاستلاب الروحي للمجتمع ككل¹.

ومن أبرز ممثلي هذه النخبة الدكتور ابن تامي، وابن جلّول، وفرحات عباس، والشريف بن حليس، الذين تربّوا في بيئة فرنسية خالصة، ففقدوا الطلاقة في اللغة العربية، واعتادوا على تقديس الثقافة الفرنسية، ودمجوا بين مرجعياتهم المحلية المحدودة والقيم الغربية إلى الحدّ الذي أصبحوا فيه لا يميزون بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافة المستعمر، وقد شكلت رغبتهم في التمتع بالامتيازات التي كانت خاضعة للمستوطنين دافعا أساسيا للانخراط في مسار الإدماج ضمن الإطار الفرنسي، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى مع صدور قوانين التجنيد الإجباري عام 1912 وإصلاحات فبراير 1919، التي فتحت آفاقا سياسية واجتماعية محدودة لهذه الفئة².

ورغم ذلك، لم تخل مسيرة النخبة من العقبات؛ إذ واجهوا معارضة شديدة من جانب المستوطنين الغلاة الذين خشوا فقدان امتيازاتهم، واستمر هذا الوضع حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث خفت صوت المطالبة بالإدماج المباشر، وحلّ محله الدفاع عن الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية للفرد الجزائري، وقد تجلّت هذه المطالب في البيان الجزائري بقيادة فرحات عباس الذي دعا إلى زيادة عدد المدارس، وفتح المدارس الحرة العربية، والسماح بالتدريس باللغة العربية، محاولة بذلك التوفيق بين الحفاظ على الهوية الثقافية الوطنية والانخراط في نظام التعليم الحديث³.

¹ - سحولي بشير، النخبة الجزائرية المفرنسة بين ثنائية حقد المستوطنين الأوروبيين وعنصرية الإدارة الفرنسية في الجزائر ما بين 1908-1937، مجلة عصور، المجلد 20، العدد 2، ، جويلية 2021، ص ص: 185-187.

- عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1999، ص: 254.

³ - Yvonne Turin, Affrontement Culturel dans L'Algérie Coloniale Ecole Médecine, Religion (1830-1880), F Maspéro, Paris, 1971, p17

وفي السياق نفسه، برز التيار المحافظ الذي قاده الشيخ عبد الحميد ابن باديس من خلال جمعية العلماء الجزائريين التي تأسست في 5 مايو 1931، واضعة هدفها الأسمى في التصدي للهيمنة الثقافية الفرنسية والحفاظ على الهوية الإسلامية عبر التعليم باللغة العربية، وسعت الجمعية إلى إنشاء مدارس حرة في مختلف المدن الجزائرية، مثل: دار الحديث بتلمسان، ومدرسة الفلاح بوهران، ومدرسة ابن خلدون بالشلف، ومدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، لتكون منابر للتعليم القرآني والقيم الإسلامية، فقد اعتقد ابن باديس أنّ مواجهة الاستعمار الفرنسي تتطلب استرجاع الوعي الثقافي والديني للجزائريين، إذ لا يمكن مقاومة الهيمنة الأجنبية في ظل استلاب الهوية، ومن هنا، انطلقت معركة الحفاظ على الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، لتصبح هذه المدارس والأنشطة التعليمية حصنا حضاريا وفكريا ضد محاولات المستعمر لمحو الثقافة الوطنية¹.

ومما سبق، يتّضح بجلاء الدور المحوري الذي لعبه التعليم في الصراع بين الثقافة المستعمرة والثقافة الوطنية، حيث بدا التعليم أداة مزدوجة: فمن جهة، سعى الاستعمار الفرنسي إلى استخدامه كوسيلة للسيطرة الثقافية والفكرية، من خلال فرض اللغة الفرنسية، تهميش العربية، وتوجيه المناهج لتشكيل نخبة جزائرية مفرنسة قابلة للاندماج في المنظومة الاستعمارية، ومن جهة أخرى، شكل التعليم الحر العربي تحت قيادة الشيخ ابن باديس ورفاقه رد فعل حيويًا للحفاظ على الهوية الإسلامية والعربية، وصيانة التراث الثقافي والديني للشعب الجزائري، وهذه المعركة بين مشروعين تعليميين متوازيين: أحدهما يسعى للاستلاب الثقافي والآخر للمقاومة والحفاظ على الهوية، تظهر بوضوح أنّ التعليم كان ساحة صراع حضاري وفكري بين الاستعمار والرغبة في الحفاظ على الذات الثقافية، وأنّ أي سياسة تعليمية لا تراعي البعد الثقافي والهوية الوطنية تكون عرضة للفشل في تحقيق التنمية الحقيقية للمجتمع.

خاتمة

يتبين من خلال دراسة السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر أنّ الشعارات الحضارية التي رفعها المستعمر كانت مجرد ستار يخفي وراءه أهدافا استعمارية واضحة، وأولى هذه الأهداف كانت فرض الهيمنة الثقافية على المجتمع الجزائري، فقد سعى المستعمر إلى القضاء على التعليم التقليدي وإضعافه، مع التركيز على تكوين نخبة جزائرية مفرنسة وموالية للسلطة الاستعمارية، بحيث تصبح أداة لتثبيت السيطرة الفرنسية على المدى الطويل.

¹ - ينظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثالث، ص 371، 308.

إضافة إلى ذلك، لم تكن المدرسة الفرنسية بديلا محايدا للتعليم التقليدي، وإنما كانت أداة صراع ثقافي مباشر ضد الهوية الجزائرية، محاولة فرض الثقافة الغربية على حساب الثقافة العربية والإسلامية، والتحكم في شكل وموضوع المعرفة التي يتلقاها الجزائريون، بهدف تشكيل وعي جديد يخدم مصالح المستعمر. ومن جهة أخرى، بدأت المقاومة الجزائرية لهذه الهيمنة الثقافية منذ المراحل المبكرة، من خلال الحفاظ على المدارس التقليدية والحركة الإصلاحية الإسلامية، وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي ركزت جهودها على صون اللغة العربية وتعزيز الهوية الوطنية والدينية، مما أظهر أن الصراع على التعليم كان جزءا لا يتجزأ من الصراع الوطني ضد الاحتلال.

وأخيرا، تُظهر دراسة هذه السياسات التعليمية أن فهم العلاقة بين الاستعمار والثقافة ليس أمرا سطحيا، فهو مفتاح لفهم أبعاد المقاومة الثقافية كعنصر جوهري من المقاومة الوطنية الشاملة، كما أن التمعن في تاريخ التعليم الفرنسي في الجزائر يساعد على إدراك الجذور العميقة للصراع الحضاري الذي واجهته البلاد، ويمنحنا قدرة أكبر على المحافظة على تراثنا الثقافي والحضاري والتعامل معه بوعي نقدي في العصر الحديث.

جدول يوضح فيه عدد المتدربين من الأوروبيين والجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتاب¹

Département		français	français & arabe	arabe	Total	Population + 60 ans	% sachant écrire
ALGER	H	58 706	17 242	25 967	101 915	967 198	11
	F	13 492	4 413	6 110	24 015	963 352	2,5
ORAN	H	24 311	11 990	23 806	60 107	665 288	9
	F	9 659	2 674	5 491	17 824	642 022	2,8
CONSTANTINE	H	34 093	21 341	45 894	101 328	1 223 039	8
	F	9 304	3 733	8 778	21 815	1 168 479	1,9
SUD	H	2 898	6 479	22 952	32 329	316 476	10
	F	609	382	1 366	2 357	318 799	0,7
TOTAL	H	120 008	57 052	118 619	295 679	3 172 001	9
	F	33 064	11 202	21 745	66 011	3 092 652	2,1

Mais au sortir de la guerre, le rythme de la scolarisation des musulmans devait s'accroître brutalement, en deux phases successives

المراجع باللغة العربية:

1. بن علي محمد، مكي خالدية، واقع التربية والتعليم في الجزائر خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي وغداة الاستقلال، المائدة المستديرة: فاعلية القانون التوجيهي رقم 2304/08، 23/01/، 2008، للتربية الوطنية يوم 28 سبتمبر 2011.
2. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ط2، ش، و، ج، 1981.
3. رشيد مباد ، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ورد فعل الجزائريين اتجاهها، دراسات وابحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 14، عدد 1 جانفي 2022، السنة الرابعة عشرة. ص ص 853،863.
4. سحولي بشير، النخبة الجزائرية المفرنسة بين ثنائية حقد المستوطنين الأوروبيين وعنصرية الإدارة الفرنسية في الجزائر ما بين 1908-1937، مجلة عصور المجلد 20، العدد 2، ، جويلية 2021 ص ص 183-224،
5. سمير أبيش، أهداف وخصائص السياسة التعليمية الفرنسية ، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، الوادي عدد 23 ، سبتمبر 2017، ص ص 128،135
6. عبد القادر بوحسون، الوجه الخفي للتعليم الاستعماري الفرنسي في الجزائر، (المنهج والآليات والنتائج)، مجلة الاستعمار، العدد 41، شتاء 2025، ص ص 143،161.
7. عبد القادر حلوش، بسياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1999.
8. محمد عمارة، تحديات لها تاريخ، المؤسسة العليا للدراسات والنشر، ط1، مصر 1960 .

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Charles Robert Ageron, l'histoire de L'Algérie Contemporaine Tome 3,P U F,Paris,1979.
2. Ferdinand Cambon, aux algérien Système de Colonisation, chez Challamel Librairie paris 1871.
3. Hubert Desvages,la scolarisation des Musulmans en Algérie(1882-1962) dans l'enseignement Primaire public

- Français ,Etude Statistique, in cahier de la Méditerranée,n°4,1,1972.pp55-72
4. Mourad kebbal, The French Cultural and Religious Policy in Algeria and National Reaction, in Kurdish Studies, May 2024, v12N°4..pp 604-612.
 5. P Bernard les écoles indigènes Devant Opinion Public, imprimerie Adolphe Jour dan, Alger 1897.
 6. Yvonne Turin, Affrontement Culturel dans L'Algérie Coloniale Ecole Médecine, Religion (1830-1880), F Maspéro, Paris,1971.